لمحات من أفكار ابن خلدون الاجتماعية

"Profiles of Ibin Khaldun's Social Thoughts"

م. د. جواد رضا السبع
كلية الآداب/ جامعة واسط

Abstract

Ibin Khaldun was the first scientist, at the Arab or foreign level, in the fourteenth century AD, who took from society a subject of independent science. For these reasons, it was important to choose the subject, to highlight the most important social ideas that Ibin Khaldun had come to, and to answer implicitly an important question: Is this science, "the science of human architecture and human society", an extension of modern sociology? Is he a social scientist because society has taken the subject of his talks?

Research section to the introduction and five axes and conclusion, came the most important conclusions of the research. The first axis dealt with a brief definition of the concepts of social thought and sociology. While the second axis discussed what "the science of human architecture" called by Ibin Khaldun for its establishment and its most important goals and sections. The third topic dealt with Ibin Khaldun's view of society and the reasons for the humanitarian meeting and the divisions that he set for society. The fourth axis discussed Ibin Khaldun's methodology and the scientific foundations on which this methodology was based. The last axis dealt with the three phases law, which Ibin Khaldun believed was the basis of human societies.

Ibin Khaldun, on the basis of the importance of the understanding of human civilization, reached an integrated scientific interpretation of the events and verifications of their validity to the need for a special science to deal with the emergence and development of the groups and their development in an attempt to trace them and analyze them in order to achieve their governing and changing laws. .

Ibin Khaldun believes that society is always in a state of conflict between the urban society and the Bedouin society that surrounds it. It places the advantages it has placed on the Bedouin community, from courage, nervousness, coarse life, and away from pleasures and luxuries. This is the secret of the superiority of this society and its predominance always prevails over urban society. And that once these characteristics begin to weaken and urbanization, this society begins to weaken to be replaced by a society still adhering to these characteristics, and so on.

المقدمة

دائما ما يوجد هنالك قطبان لما حصل في الماضي والحاضر، فهنالك الواقع، وهنالك ايضاً الفكر، ودائماً ما يوجد بينهما من تأثير متبادل، فالواقع يغني الفكر والأخير يغني الواقع، حتى يمكن القول ان تاريخ البشرية وتطور المجتمع بقدر ما يوجد به تطور مادي فانه بالوقت نفسه ينطوي على تطوراً للوعي الإنساني. ومن المعلوم ان الفكر الاجتماعي ولد في رحم الفلسفة حتى وصل الى مرحلة النضج وأصبح "علم الاجتماع". لذلك فان جذور "علم الاجتماع" تعود الى الجهود الفكرية التي بذلها العلماء والفلاسفة الأوائل، وتنامى هذا العلم بفضل جهود هؤلاء على مر العصور حتى أصبح "علم الاجتماع" كما نعرفه اليوم بأسسه ومناهجه العلمية المعاصرة.

كان ابن خلدون أحد هؤلاء العلماء والفلاسفة، الذي كانت اسهاماته الفكرية في هذا المجال محل تقدير جميع المختصين بالدراسات الإنسانية، لاسيما المختصين بعلم الاجتماع، لما كانت عليه أفكاره ورؤاه الاجتماعية رائدة في عصره. بل ان ابن خلدون يعد بحق من واضعي اللبنات الأولى لعلم الاجتماع خلال سعيه ليكون التاريخ صحيحاً، وكذلك لأجل ان يحسن فهمه، اوجب وضع طريقة اكيدة لتحقيق الوقائع التاريخية وعرض القوانين التي تعمل بطبقها النظم الاجتماعية بشكل واضح، عبر استحداث علم مستقل بذاته اسماه **"علم العمران البشري"**. وكان ابن خلدون بذلك اول عالم، على المستوى العربي او الأجنبي، في القرن الرابع عشر الميلادي قد اتخذ من المجتمع موضوعاً لعلم مستقل. ولهذه الاسباب جاءت أهمية اختيار الموضوع، لتسليط الضوء على اهم الأفكار الاجتماعية التي جاء بها ابن خلدون، وللإجابة بشكل ضمني على تساؤل مهم، وهو هل هذا العلم، **"علم العمران البشري والاجتماع الانساني"**، هو امتداد لعلم الاجتماع الحديث؟ وهل هو عالم اجتماعي لأنه اتخذ المجتمع موضوعاً لمباحثه؟

قسم البحث الى المقدمة وخمسة محاور وخاتمة، جاء بها اهم استنتاجات البحث. تطرق المحور الأول الى تحديد مختصر لمفهومي الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع. بينما ناقش المحور الثاني ماهية "علم العمران البشري" الذي دعا ابن خلدون لأنشائه واهم أهدافه واقسامه. وتطرق المبحث الثالث الى نظرة ابن خلدون للمجتمع وأسباب الاجتماع الإنساني والتقسيمات التي وضعها للمجتمع واهم مميزات خصائص هذه المجتمعات ودور العصبيية فيهم. وناقش المحور الرابع منهجية ابن خلدون الاجتماعية والاسس العلمية التي قامت عليها هذه المنهجية. وتناول المحور الأخير قانون الاطوار الثلاث الذي اعتقد ابن خلدون الذي تسير عليها المجتمعات البشرية، ومناقشة الاعمال التي تمر بها الدولة، وانتقال المجتمع من مرحلة الى أخرى.

أولا: مفهوم الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع

لا يمكن ان نفهم الأفكار الاجتماعية لابن خلدون[١] واهميتها ما لم نعرف مفهوم الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع. فيقصد بالفكر الاجتماعي **"الأنشطة والفعاليات والممارسات واشكال التفكير البسيط التي عرفتها المجتمعات البشرية، منذ بداية نشأتها، والتي ما لبثت ان تطورت وتنامت بالتدريج عبر المراحل التاريخية المتعاقبة، وشكلت في نهاية المطاف ما صار يسمى بعلم الاجتماع"**[٢]. والفكر الاجتماعي من ناحية أخرى وطيد الصلة بمجمل الفكر الإنساني الذي شمل نواحي متعددة مثل التفكير المعرفي والسياسي والاجتماعي، أي ان الفكر الاجتماعي نشأ وتطور في دائرة الفكر الإنساني الواسع الذي اصطلح على تسميته ب **"الفلسفة"**. لذا ان الفكر الاجتماعي ولد في رحم الفلسفة حتى وصل الى مرحلة النضج وانفصل عن الفلسفة مكوناً علماً خاص به هو علم الاجتماع.

اما علم الاجتماع فيقصد منه، من بين معاني عديدة، بانه **"العلم الذي يدرس الظواهر والحوادث الاجتماعية، دراسة موضوعية تحليلية، الهدف منها استخلاص القوانين التي تخضع لها تلك الظواهر والحوادث"**. وان لهذا التعريف لعلم الاجتماع أهميته الخاصة في هذا البحث في معرفة بعد الأفكار الاجتماعية التي وصل اليها ابن خلدون في مقدمته، والتي سيتم التطرق اليها في المحاور التالية.

في الحقيقة ان علم الاجتماع من العلوم الاجتماعية الشاملة التي تحاول بناء معرفة ونظريات تسهم في فهم المجتمع ومكوناته وعلاقاته، وتعمل هذه المعرفة على تفسير تشكل المجتمع وتطوره من ناحية، وتفسير السلوك الإنساني من ناحية اخرى[٣]. وقد تم تناول الجوانب الاجتماعية في البدايةً بالأساطير على شكل معرفة غيبية ملتصقة بالدين، ثم في الفلسفة على شكل معرفة ميتافيزيقية لا تقوم على أساس دراسة الواقع، فالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وفي الأخير تحولت التراكمات العلمية الكمية في نوعية جديدة تمثلت بظهور علم جديد عن الظواهر الاجتماعية وهو علم الاجتماع، بدأ بالظهور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد العالم الفرنسي اوغست كونت الذي أطلق عليه اسم سوسيولوجي Sociology[٤].

ان علم الاجتماع هو ظاهرة اجتماعية خضع الى قانون **"التراكمات الكمية"** قبل تحوله الى **"علم نوعي مستقل ومتميز ومحدود الهوية ومعترف به على المستويين الاكاديمي والشعبي"** ولهذا لا يمكن تحديده بتاريخ محدد او بشخص معين يمكن ان يكون هو نقطة الصفر لهذا العلم او ذاك. فتاريخ المعرفة والعلم هو تاريخ موحد ومستمر انتقل من الكم الى الكيف وبالعكس[٥].

ثانياً: ابن خلدون وعلم العمران البشري

في الوقت الذي كان الاهتمام العام بدراسة المجتمعات الإنسانية يقوم على نزعة تخيلية في تحديد صفات وخصائص المدن الفاضلة والمثالية، عند افلاطون والفارابي مثلا، أي بما يجب ان تكون عليه الظاهرة الاجتماعية وليس الكشف عن طبيعتها والقوانين التي تحكمها[٦]، فضلا عن النزعة الدينية التي تمثلت في الفلسفة المسيحية والإسلامية، قدم ابن خلدون لأول

مرة في القرن الرابع عشر الميلادي نزعة واقعية تحقيقية نقدية في معالجته للظواهر الاجتماعية[٧]، فكان بحق رائدا في هذا المجال لم يلحقه في نظرته هذه الا علماء الغرب بعد خمسة قرون تقريباً.

ألف ابن خلدون العديد من المؤلفات كان من بين أهمها كتاب **"تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر"**. وقد مهد لهذا الكتاب سنة ١٣٧٧، وهو بالعقد الخامس من العمر[٨]، بمقدمة في **"فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما عرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من أسبابها..."** وتبعها بتأليف **"الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب"**[٩]. وتم دمج المقدمة والكتاب الأول بكتاب اشتهر باسم **"مقدمة ابن خلدون"**، والذي يفيد في بحثنا هذا، حمل اهم اراء ابن خلدون في فلسفة التاريخ وفكره الاجتماعي.

كان الهدف الواضح من تأليف ابن خلدون لمقدمته، كما جاء بتعبيرات ابن خلدون نفسه في مقدمته، الى **"تمحيص الاخبار وتصحيح الوقائع التاريخية"** على اعتبار ان الطريقة التي يراها مثلى لتحقيق ذلك، **"هي ان يكون عالم التاريخ ملما بطبائع العمران واحوال المجتمع لكي يتمكن من الحكم على الوقائع موضوع بحثه، وعما إذا كانت تتفق او لا تتفق مع ظاهر واحوال المجتمع. ومن هنا يوجب على المؤرخ، قبل ان يفسر التاريخ ويعلله، ان يلم بدراسة شؤون العمران من سياسية واقتصادية ودينية، حتى يستطيع في سوء تلك المعرفة ان يصحح ما بين يديه من الحقائق"**.

أي ان ابن خلدون يعتقد بان التاريخ هو علم يتخصص بدراسة كافة الظواهر الاجتماعية لحياة الانسان كما وقعت في الماضي. أي ان التاريخ حسب وجه نظر ابن خلدون يجب ان يهتم بماهية المهن والتجارة والصناعة التي يزاولها البشر، وتطور الفنون والعلم والفلسفة والدين، ومختلف العوامل التي تؤثر في الحياة الاجتماعية. وبهذا فان المواضيع التي يحث ابن خلدون على دراستها هي نفسها التي يهتم بها عالم الاجتماع، لذا يعتقد البعض بان ابن خلدون يرى بان التاريخ هو علم الاجتماع، وان الأخير هو التاريخ. اذ ان ابن خلدون يرى بان المختصين بعلم الاجتماع يحتاجون أحيانا الى تتبع الظاهرة الاجتماعية الى جذورها التاريخية لاستيعاب وفهم حاضرها والتنبؤ بمستقبلها وتحديد اتجاهها[١٠].

فالمؤرخ حسب وجه نظر ابن خلدون يرفد علم الاجتماع بمعلومات تاريخية عن طبيعة الظواهر الاجتماعية في الماضي، وعالم الاجتماع يزود المؤرخ بتقنيات الطريقة العامة الخاصة به التي تربط السبب والنتيجة وظاهرة اجتماعية وأخرى والعوامل المؤثرة بينهم[١١]. احسان٧٤ أي ان ابن خلدون اعتمد على منهج علم الاجتماع في دراسة التاريخ، واستعان بالأخير عند تفسيره مظاهر العمران البشري وما يلحقه من تأثيرات اجتماعية، وبهذا يمكن عد ابن خلدون مؤرخا وعالم اجتماع في الوقت نفسه.

اكد ابن خلدون، عبر اهتمامه بالتاريخ وفلسفته، على ضرورة وجود علم جديد مستقل بذاته يهتم بدراسة نشوء الجماعات الإنسانية والنظم الاجتماعية واشكالها التاريخية والعمران وتطوره، في سعيه لتتبعها وتحليلها تاريخيا للوصول الى ما يحكمها من قوانين[١٢]. لذا يمكن القول بان ابن خلدون كان مدركا عند تأليفه لمقدمته بانه بصدد اكتشاف علما جديدا سماه العمران البشري او علم الاجتماع الإنساني، اذ ذكر في مقدمته: **"اعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة... وكأنه علم مستنبط النشأة. ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة"**[١٣]. ويبين ابن خلدون علم العمران وموضوعه واستقلاله بذكره: **"وكان هذا علم مستقل بنفسه، فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي ما يلحقه من العوائض الذاتية واحدة بعد أخرى، وهذا شان كل علم من العلوم وضعياً كان او عقليا..."**.

يبين ابن خلدون علمه الجديد بان يختص بالإنسان في وجوده الذي يقوم على الاعتماد المتبادل، أي عندما يشكل البشر جماعة او مجتمعا، وما يمكن ان ينجم من نشاطات بشرية سواء اتخذ هذا النشاط شكل التعاون او الصراع، والاهم معرفة القوانين التي تتحكم بالحياة الاجتماعية(١٤).

خصص ابن خلدون ستة بحوث رئيسة في كتابة المقدمة عن مختلف صنوف العمران البشري، وقصد ابن خلدون من استعماله مصطلح العمران هو للدلالة على ما عمر الانسان بنشاطاته وافعاله من الأرض، ويشمل بهذا المفهوم علاقة الانسان ببيئته الطبيعية، وما تشكل من تنظيمات ونظم اجتماعية وما ارتبط بها من ثقافة مادية ومعنوية(١٥).

وقسم ابن خلدون العمران البشري الى ستة اقسام رئيسة: فهنالك العمران البشري المتعلق بأثر البيئة الجغرافية في ألوان البشر واخلاقهم وطرق معاشهم. وهنالك العمران البدوي الذي يهتم بدراسة طبيعة سكان البادية ونشاتهم، والعادات والتقاليد السائدة بينهم. والعمران السياسي، الذي يتناول فيه مناقشة الشؤون السياسية وأنظمة الحكم وأسباب الاضطرابات والهياج السياسي واثر العوامل السياسية في تغيير الأنظمة والبلدان. والعمران الحضري، الذي يعرض فيه نشأة المدن والامصار والتجمعات الإنسانية ومميزات المدن عن غيرها من المظاهر العمرانية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية. وهنالك ايضاً العمران الاقتصادي، وموضوعه الموارد والثروات "والمعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله" ودورها جميعاً في استقرار السكان ورفاهيتهم الاجتماعية. واخيراً هنالك العمران الفكري الذي يبحث في "العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال"، ويتناول هذا العمران ايضاً العبادات والأديان واماكنها وجورها في تهذيب نفوس الناس وتطوير سلوكهم وقيمهم وتماسكهم(١٦).

اعتمد ابن خلدون في دراسته النظم العمرانية للمجتمع على الأسس العلمية والتحليلية. وبطريقته الدراسية هذه للمواضيع التي تبناها في نظمه العمرانية والإنسانية، والتي هي تصب من الناحية الشكل والمضمون في جوهر دراسة علم الاجتماع الحديث، اثبت بحق بانه كان يمثل حالة خاصة في تلك المرحلة التاريخية المبكرة(١٧).

ثالثاً: ابن خلدون ونظرته للمجتمع

امن ابن خلدون بحتمية الاجتماع الإنساني وتكون المجتمع، ذاكراً في مقدمته: **"ان الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم..."** (١٨). وتتجلى ضرورة هذا الاجتماع الإنساني حسب وجه نظره لعدة أسباب: منها ما هو من اجل التعاون والدفاع والسلطة الوازعة وضرورة الاستئناس والحياة الجمعية.

فالإنسان عند ابن خلدون هو اجتماعي بطبيعته، لذا فان نشوء المجتمع هو ظاهرة طبيعية، يعود السبب الرئيس لهذه الظاهرة هو التكافل الاقتصادي وبحث الانسان عن الماء والغذاء. وبما ان الفرد **"قاصر على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفيه له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه – وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً – فلا يحصل الا بكثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة، من حداد، ونجار، وفاخوري.... والى اعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدرس... ويستحيل ان تفي بذلك كله او بعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم. فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف..."**(١٩).

اذا الدوافع الفطرية للغذاء والتكاثر هي العامل الرئيس التي تدفعه الى الاجتماع مع غيره، وهذا الدافع الاقتصادي يدفعه ايضاً الى تقسيم العمل والتعاون مع بني جنسه ومن ثم ينشا التضامن الذي هو اكبر دعائم المجتمع ذلك ان فطرة الانسان تدفعه الى ان يتعاون مع غيره ليستكمل بذلك خواصه النوعية والجنسية بالإضافة الى كل ما يشبع بواعثه الاجتماعية(٢٠).

ويواصل ابن خلدون تبيان دافع الحماية الذي يتمثل في حقيقة كون افراد البشر **"يحتاج كل منهم في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه.... فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة منها، فهو عاجز عن مدافعته وحده بالجملة ولا تفي قدرته ايضاً باستعمال الآلات المعدة لها، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه..."**[٢١]. أي ان أسباب الامن تجعل الافراد يتجمعون سوية كي يستطيعون الدفاع عن أنفسهم سواء من الحيوانات المفترسة او من اعتداء بعضهم على البعض الاخر.

ويقرر ابن خلدون ان لتجاوز الطبيعة العدائية لدى الانسان على المستوى الفردي والجماعي لا بد له من واعز ينظم العلاقات فيما بينهم ويؤسس للنظام، وبكلام ابن خلدون: **"ان هذا الاجتماع إذا حصل للبشر ... فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان. وهذا معنى الملك... انها خاصية للإنسان طبيعية ولا بد لهم منها"**[٢٢].

ومن الدوافع التلقائية التي يضعها ابن خلدون لاجتماع الانسان هي الاستئناس بغيره من البشر. ومع فطرية الفرد للاجتماع الا ان ابن خلدون يضع رغبة الفرد وميوله نحو المشاركة لتحقيق هذا الاجتماع، حتى يؤمن الانسان نفسه من العدوان والاضطرابات[٢٣].

ويقسم ابن خلدون المجتمع الى عدة مجتمعات: المتوحشة والبدوية والرعوية والقبلية والريفية والحضرية. ويحدد بشكل دقيق كل نمط من هذه المجتمعات ومميزاتها، والنمط الذي تتغير فيه من مجتمعات رعوية الى مجتمعات زراعية ريفية وتحول الأخيرة الى مجتمعات حضرية تسكن المدن[٢٤]. ويرى ابن خلدون بان المجتمع البدوي يمثل نموذج الجماعة بدايةً، يتحول تدريجياً ليصل الى النموذج الحضري، ويشمل الفارق بينهما باختلاف بيئة السكن والحرف التي يعيشون عليها. وقد حدد بالتفصيل الخصائص العامة لمجتمع البدو في[٢٥]:

١. المنتحلين للمعاش الطبيعي من الفلح والانعام.
٢. المقتصرين على الضروري من الاقوات والملابس والمساكن.
٣. المتضامنين والمتحدين برابطة عصبية النسب، وبها يكون التعاضد والتناظر.
٤. المنتظمين على أساس سلطة الأعراف والتقاليد، التي تشكل قاعدة شرعية السلطة.
٥. المتميزين لظروف حياتهم بثقافة ونظام قيمي يعزز قيم الشجاعة والكرم والخشونة.

اهم ميزة وضعها ابن خلدون للمجتمع البدوي هي ظاهرة العصبية التي يعدها دعامة هذا المجتمع، فضلا عن مهنة الرعي التي يزاولوها، وتماسكهم وعلاقاتهم الاجتماعية. ومن الصفات المميزة لهذا المجتمع ايضاً هي **"الشجاعة وقدرتهم على التغلب وانتزاع ما في ايدي سواهم من الأمم..."** [٢٦].

وفي هذا الصدد يقيم ابن خلدون للعصبية عاملا حسماً في تمييز المجتمع البدوي ويعطيها أهمية استثنائية، اذ يقول عنها في مقدمته: **"ان صلة الرحم طبيعي في البشر، الا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى، والارحام ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة"**. ولا يحدد ابن خلدون العصبية بصلة الرحم فقط بل تشمل الحلف والولاء والدخالة، والمعنى العام لها **"هي العشرة والمدافعة وطول الممارسة، والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة"**[٢٧]. ويبين ابن خلدون كذلك العصبية بانها أساس قوة المجتمع التي تمنحه فرصة تشكيل الدولة او ضعفها وفنائها. فالملك يحصل بالغلبة، وهي تحتاج الى العصبية، واستمرار الحكم يحتاج الى استمرار علاقة الحاكم بعصبيته[٢٨]. ويبرر ابن خلدون العصبية بالحماية والمدافعة والمطالبة. وانه يذكر ان العيش بعيداً عن المراكز المتحضرة تجعل الافراد شجعان، وفي حين ان افراد المجتمع البدوي

يعيشون في مناطق متوحشة، فهم شجعان، وبما انهم يعيشون على النظام القبلي المقام على التعصب، لذا فان التعصب تحصيل حاصل النظام القبلي الذي افرز مفهوم التعصب القبلي من اجل حمايته والمدافعة على افراده ومطالبته بسلطة وسيادة على النظم القبلية الأخرى المجاورة له[٢٩].

وبالعودة الى النمط الاخر للمجتمع، وهو المجتمع الحضري، الذي ميزه بالاستقرار الجغرافي داخل المدن والقصبات ويمتهن الصناعة والتجارة والزراعة الكثيفة ونظام دقيق لتقسيم العمل والتخصص به[٣٠]، وتكون علاقاته الاجتماعية ضعيفة نوعا ما ويطغى عليها الجانب الرسمي. وان لهذا المجتمع الحضري خصائص مميزة حددها ابن خلدون في[٣١]:

١. التحول من طلب الضروري الى الكمالي، نتيجة تقسيم العمل وتحقيق الفائض.
٢. تحول اقتصادي يضيف الى الاقتصاد الرعوي الفلاحي تطوراً في الصناعة والتجارة ووسائل الإنتاج.
٣. قيام الدولة وظهور المؤسسات الخاصة ببناء الدولة وادارتها.
٤. استبدال الروابط الطبيعية بروابط مهنية ومدنية وظهور الفردية.
٥. تطور ثقافي يتباين مع البناء الاجتماعي.
٦. تطور أوجه العمران والعلوم والآداب والفنون.

ينسب ابن خلدون ضعف العصبة والتضامن بين افراد المجتمع الحضري وشيوع الرفاهية والاستقرار في ربوعه وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم مدعاة الى تشكيل حالة صراع دائم مع مجتمع البدو المحيط به. وينسب ابن خلدون ضعف العصبية القبلية اذا تعرضت لرياح الترف ولا تبقى على صلابتها وقوامها، وتنقرض عندما تعيش في المراكز الحضرية. لذلك ان جوهر الصراع الاجتماعي عند ابن خلدون هو العيش بعيداً عن المراكز المتحضرة، لان العيش في المناطق المنعزلة والفقيرة في مواردها الاقتصادية تجعل من سكانها مندفعون نحو الحصول على مصادر اقتصادية ويزيد من عصبتهم لأسباب اقتصادية وسلطوية. وبعد حصول حالة الترف تصبح مركز جذب لعصبيات أخرى تعيش في مناطق موحشة من اجل الحصول على حالة الترف هذه، فيدخلون في صراعات معهم لكي يحصل على النعيم الذي يكون مفقوداً في مناطقهم الموحشة[٣٢]. لذا يوصي ابن خلدون المقاتلين بتجنب الإقامة في المدن الذين اخضعوها لنفوذهم العسكري من اجل ان يحتفظوا بعصبيتهم، وان يبقوا مختلفين عن اهلها.

ويبين ابن خلدون تأثير الظواهر الطبيعية على المجتمع، التي حدد بموجبها الظواهر الطبيعية بانها تلك الظواهر التي يخضع اليها الانسان وتؤثر عليه بشكل مباشر، مثل لون البشرة، ابيض او اسمر، او التي تتصل به بشكل غير مباشر مثل العوامل المناخية، مثل الحر والبرد. وعلى السياق نفسه، يفسر ابن خلدون كثرة العمران وزيادة السكان في المجتمع الى الظروف الاجتماعية، ويقول في ذلك: **"وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفاً وتيبساً يمنع التكوين ... اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة"**، وعندما تنكسر الشمس يتحول الحر الى الاعتدال على التدريج الى ان يفرط البرد في شدته فينقص التكوين ويفسد. لذلك ان التقدم في المجتمع يكون في الإقليم الأول قليلاً ومتوسطاً في الثاني لاعتدال الحر، وفي الثالث كبيراً لنقصان الحر[٣٣].

رابعاً: منهجية ابن خلدون الاجتماعية

امن ابن خلدون بالمنهج العلمي في دراساته التاريخية والاجتماعية كان الهدف منه، حسب ما جاب بمقدمته، الى **"تمحيص الاخبار وتصحيح الوقائع التاريخية"** باعتبار ان يكون المؤرخ ملما بطبائع العمران واحوال المجتمع لكي يتمكن من الحكم على الوقائع ومقدار انسجامها مع ظواهر المجتمع[٣٤]. وقد اعتمد ابن خلدون على العديد من الطرق المنهجية العلمية في دراسة الظواهر الاجتماعية، تأتي في مقدمتها استخدامه المنهج التاريخي الذي بداه بتحليل اصل وجود المجتمع وحتمية حركته

وتطوره عبر العصور، اذ يبين ابن خلدون بان هنالك قوانين تاريخية تحدد مسيرة المجتمع عبر المراحل التاريخية المختلفة التي تتميز كل مرحلة فيها بخصائص عامة خاصة به[٣٥].

التقنية الثانية التي استعملها ابن خلدون في منهجه هي المنهج المقارن، أي استخدام مقارنة الظاهرة بغيرها من الظواهر المرتبطة بها في المجتمع نفسه وفي غيره من المجتمعات. وفي هذا السياق اكتشف ابن خلدون قانوني التشابه والتباين. فقانون التشابه يأتي من تشابه المجتمعات في بنائها وانماطها ومقدراتها الفكرية والعقلية. اما فيما يتعلق بقانون التباين فيقصد به تفسير اختلاف المجتمعات في ظروفها وتقاليدها وتقدمها الحضاري. ومن خلال هذه القوانين يمكن صياغة قوانين تفسر حقيقة الوجود الاجتماعي والعوامل التي تؤثر به.

والاداة الأخرى التي استعملها ابن خلدون في منهجه هي أسلوب الملاحظة وتجميع الوقائع التاريخية للظاهرة الاجتماعية واستخدام الطريقة العلمية والنقدية في ضوء التجربة الشخصية للظاهرة محل البحث. أي جمع المادة الأولية لموضوع البحث من المشاهدات المباشرة وتتبعها عبر الماضي، أي اعتمد ابن خلدون على الملاحظة المباشرة للظاهرة الاجتماعية وعلى جمع الوقائع الخاصة بها. وقد اعتمد ابن خلدون على ملاحظة الظواهر الاجتماعية للشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها، وعمل على تعقب هذه الظواهر في تاريخ الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره، وتعقب كذلك نظراء هذه الظواهر لدى شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها، والموازنة في النهاية بين هذه الظواهر بأجمعها والتأمل في شؤونها وما تؤديه من وظائف في حياة الافراد والعلاقات التي تربط بينها، واختلاف هذه الظواهر باختلاف الأمم والازمنة والوصول في الأخير الى القوانين التي تضبط هذه الظواهر[٣٦].

وكان منهج الاستقراء هو المنهج الأخير الذي اعتمد عليه ابن خلدون في مقدمته، والتي جاء فيها باعتماده على جمع الأدلة والبراهين التي تسهم في الوصول الى تعميمات محتملة الصدق والثبات، وهي التعميمات التي تمكن البحاث من دراسة اجزاها والوصول الى نتائج نهائية تخص موضوع البحث[٣٧].

نخلص من ذلك بان ابن خلدون اعتمد على الأسس المنهجية العلمية مثل: الملاحظة والتجربة والاستقراء، والتي تمكن من خلالها الوصول الى القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتي تربط فيما بينها.

خامساً: قانون الاطوار الثلاث

خلص ابن خلدون من خلال دراسته التاريخية للدولة الإسلامية الى قانون اجتماعي اعتقد بانه يحكم حركة المجتمعات البشرية، وهو قانون الاطوار الثلاث للمجتمع البشري[٣٨]. فهو كان يرى بان المجتمع يمر، كما هو الحال مع الكائن الحي بأدوار رئيسة هي الطفول، النشأة والتكوين، والشباب، النضج والازدهار، والشيخوخة. فمرحلة الطفولة لدى الفرد تقابلها في حياة المجتمع مرحلة البداوة، او مرحلة القبيلة، وهي المرحلة التي تقوم على العصبية والفضيلة والدعوة الدينية[٣٩].

وعد ابن خلدون مرحة النضج عند الانسان مرحلة التحضر في المجتمع، والتي تكتمل برسوخ دعائم السلطة. التي عندها يركن المجتمع الى السكون والاستمتاع بثمرات الحضارة. كما عد مرحلة الشيخوخة في جسم الانسان مقابلة لمرحلة الهرم في المجتمع. اذ يصل خلالها المجتمع الى مرحلة الفساد الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي التي تؤدي الى انهياره. وحسب وجهة نظر ابن خلدون، فاذا كانت الشيخوخة في جسم الانسان تنتهي بموته، فان مرحلة الهرم التي يصل اليها المجتمع تنتهي بموته أيضاً[٤٠].

وحدد ابن خلدون عمر الدولة، كما ان لها اعمار طبيعية كالبشر **"في الغالب ثلاثة أجيال، لان الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة**

العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترف من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء... واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن... فيصيرون عيالا على الدولة... فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة، ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء، حتى يأذن بانقراضه، فتذهب الدولة بما حملت"[٤١].

وبهذا حدد ابن خلدون، بشكل بشكل ديناميكي، اعمار الدولة بثلاثة أجيال، وحدد الجيل الواحد بأربعين سنة، لذا فان عمر الدولة بذلك هو مئة وعشرون سنة، وفي ضل هذه الأجيال الثلاث تمر الدولة بحالة الأدوار الثلاث من النشأة والنضوج والهرم والشيخوخة[٤٢]. وفي حالات أخرى نجد ان ابن خلدون يعبر عن هذه المراحل الثلاث بمرحلة البداوة والملك والتحضر والضعف والاستكانة[٤٣].

وبهذا يرى ابن خلدون بان انتقال المجتمع "الدولة" من مرحلة الى أخرى سببه ضعف العصبة والتضامن بين افراده وشيوع الرفاهية والرخاء بينهم وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم، وفي ظل هذه الظروف يتعرض المجتمع الى التحدي فيتحول من شكل الى اخر. ويركز ابن خلدون هذا الامر على المجتمع الحضري الذي تقل فيه العصبة وروح التضامن وتتعمق حالة الصراع فيه بين الحضارة والبداوة[٤٤]، هذا الصراع الذي يتمخض عن سقوط الملك بعد غزو البدو للمدن واحتلالها وإقامة نظام سياسي جديد محل النظام السابق، او يرجع ابن خلدون هذا التغير الى تكاثر السكان واستقرارهم وانتهاجهم نظام التخصص وتقسيم العمل. كذلك نسب ابن خلدون هذه التغييرات الى تعرض المجتمع الى تبدلات مناخية او غزوات عشائرية او تغيير في المهن التي يزاولها سكان ذلك المجتمع، مثل تحولهم من الرعي الى الزراعة او التجارة او الصناعة[٤٥]. وحسب وجهة نظره ان هذه التغييرات لا بد ان تنعكس على بقية النظم الاجتماعية، وهو الامر الأساسي في التغيير الاجتماعي حسب وجه نظره.

يعتقد ابن خلدون بان الدولة تأخذ بالضعف كلما تقدم الزمن بها. وتكون متماسكة في نشأتها الأولى متما كان الافراد خاضعين لها وتمارس عليهم سلطة مطلقة، الا ان سرعان ما يدب الضعف والتدهور فيها كلما دارت عجلة التغيير وتعمل الحياة الحضرية على تفتيتها. ذلك ان حياة الحضر تميل الى الهدوء وعدم الخشونة والاضطراب، بينما سكان البدو يميلون الى الخشونة والتوسع، ونتيجة لذلك ينتهي صراعهم مع اهل الحضر الى تفوقهم وكسبهم الصراع الاجتماعي لمصلحتهم[٤٦]. لذا حتمية التغيير الاجتماعي الذي يحصل في المجتمع، لأنه يعتقد بان الظواهر العمرانية هي ظواهر متبدلة على مر الزمن، وان لهذه الظواهر العمرانية والمدنية قوانين ثابته تسير عليها اثناء تطور المجتمع، لذا يرى بان على الباحث ان ينظر الى التاريخ الحضاري نظرته الى المجهر الذي يكشف عناصر الظاهرة بالتفصيل ويسلط الضوء على العوامل الإيجابية في نشأتها وتطورها.

ويمكن رصد اهم القوانين التي يؤمن بها ابن خلدون هي قوانين الحركة والتطور التي تتبع المسار السياسي والتي تشبه قوانين الكائنات الحية في الطبيعة، والتي هي لا تتوقف على حالة واحدة بل تتطور من الصغر الى النمو والنضج والهرم.

ان عملية التحول والصيرورة الاجتماعية الطبيعي للمجتمع والدولة هي عملية حتمية ومستمرة لدى ابن خلدون لا بد من حصولها ولا يمكن إيقافها[٤٧]، وهي تتحرك في نظام حتمي يجعل دورتها قانونا ثابتا. لذا فالتقدم الاجتماعي عند ابن خلدون يأخذ شكل الدائرة المقسمة الى أربعة أجزاء، والتي حددها بالتتابع، البداوة او المرحلة القبلية، والحضارة، ومرحلة الملك، والجزء الأخير مرحلة الهرم. وتصور ابن خلدون بان المجتمع يسير على هذه الدائرة من فترة الى أخرى عبر هذه المراحل

دون تغيير[٤٨]. وبهذا تسير الأمور في دائرة أولها البناء واخرها الزوال. وللإنصاف ان المجتمع والدولة والحضارة لا تخضع لمثل هذه الدائرة المغلقة التي بينها ابن خلدون في مقدمته. فالتراكم الحضاري، رغم فترات الانتقال، من دولة الى أخرى، الا انه في الاعم الاغلب، الجديد يبني على ما توصل اليه القديم، وليس تحطيم لحضارة وبناء حضارة أخرى.

الخاتمة: من خلال ثنايا البحث يمكن الوصول الى اهم الاستنتاجات التالية:

- توصل ابن خلدون بناء على أهمية فهم العمران البشري الى تفسير علمي متكامل للأحداث وعمليات التحقق عن صحتها الى ضرورة وجود علم خاص يتناول فيه نشوء الجماعات والعمران وتطورها في محاولة لتتبعها وتحليلها للتوصل الى ما يحكم تشكلها وتبدلها من انتظامات وقوانين، وكان بذلك بحق من رواد ومؤسسي علم الاجتماع، سبق علماء الغرب بأفكاره الاجتماعية بزهاء خمسة قرون، بسبب المنهجية العلمية التي تعامل بها مع الظواهر الاجتماعية، من دراستها بشكل مباشر، وتتبع جذورها التاريخية، ومقارنتها مع الظواهر الاجتماعية في داخل المجتمع موضع الدراسة، ومجتمعات أخرى والوصول الى القوانين التي تحكم تلك الظواهر من اجل فهمها ووضع التنبؤات المستقبلية لها.

- تأكيده على قانون الاطوار الثلاث ومرور المجتمع بدائرة مغلقة تبتدأ بالنشأة وتنتهي بالوفاة، لتبدأ مرحلة جديدة في المجتمع على أنقاض المجتمع الهالك، وهو لذلك في دورة مستمرة. وهذا الامر يؤخذ على ابن خلدون لان غالباً ما يتم بناء حضاري جديد امتداداً للبناء السابق.

- تأكيد ابن خلدون على العصبية وإنها أساس قوة المجتمع والحكم، وان ضعفهما يكون لسبب رئيس مرتبطاً بضعف هذه العصبة.

- يرى ابن خلدون بان المجتمع دائماً ما يكون في حالة صراع بين المجتمع الحضري والمجتمع البدوي الذي يحيط به. وانه يضع للميزات التي وضعها للمجتمع البدوي، من الشجاعة والعصبية والحياة الخشنة والابتعاد عن الملذات والكماليات، هي سر تفوق هذا المجتمع وتكون الغلبة له دائما على المجتمع الحضري. وانه حالما تبدأ هذه المميزات بالضعف والتمدن يبدأ هذا المجتمع بالضعف ليحل محله مجتمع مازال متمسك بهذه المميزات، وهلم جرى. وهو بهذا يخالف جذريا الطروحات التي قدمها عالم الاجتماع العراقي، علي الوردي، فيما يخص الصراع بين الريف والمدينة، والذي حسب وجهة نظره تكون الغلبة للمجتمع الحضري، والضعف يدب فيه حال تغلغل قيم المجتمع الريفي اليه.

الهوامش

(١) ابن خلدون: هو عبد الرحمن محمد بن ولي بن خلدون الحضري، ولد في تونس سنة ١٣٣٢م. تتلمذ على يد ابيه وعدد من علماء تونس. درس العلوم الشرعية واللغة والطبيعيات والرياضيات والفلسفة. كانت حياته زاخرة عملا وعلما. اشتغل في مختلف الوظائف العامة والسياسية في دواوين الملوك والامراء في كل من تونس والمغرب ومصر والشام. فقد عمل كاتبا واستاذا وقاضي قضاة ورئيس وزراء. وكان اخر منصب تولاه قبل وفاته هو قاضي قضاة المالكية في مصر التي توفي ودفن فيها سنة ١٤٠٦. لمزيد من التفاصيل، ينظر: طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، ترجمة محمد عبد الله عثمان، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٧-٣٠.

(٢) نبيل عبد الحميد عبد الجبار، تاريخ الفكر الاجتماعي، عمان، ٢٠٠٩، ص ٧.

(٣) إبراهيم عيسى عثمان، الفكر الاجتماعي والنظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع، عمان، ٢٠٠٩، ص ١٥.

(٤) سمير عبد الفتاح، مبادئ علم الاجتماع، عمان، ٢٠٠٦، ص ١٥-١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣-١٤.

(٦) زيدان عبد الباقي ، التفكير الاجتماعي، نشأته وتطوره، ط ٢، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٨٠.

(٧) معن خليل عمر، تاريخ الفكر الاجتماعي، بغداد، ١٩٨٥، ص ١٠٤.

(٨) إبراهيم عيسى عثمان، الفكر الاجتماعي، ص ١٩.

(٩) ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، ج١، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ط١، دمشق، ٢٠٠٤، ص٨٦.

(١٠) احسان محمد الحسن، رواد الفكر، ص ٧٢-٧٣.

(١١) احسان محمد الحسن، رواد الفكر الاجتماعي، دراسة تحليليه في تاريخ الفكر الاجتماعي، بغداد، ١٩٩١، ص٧٤.

(١٢) إبراهيم عيسى عثمان، الفكر الاجتماعي، ص ٢٢.

(١٣) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ١٢٨.

(١٤) نبيل عبد الحميد، تاريخ الفكر، ص ١٢٢.

(١٥) إبراهيم عيسى عثمان، الفكر الاجتماعي، ص ٢٣.

(١٦) نادية حسن سالم، اصالة ابن خلدون، بحث منشور في ندوة التراث الاجتماعي العربي، الخرطوم، ١٩٨٥، ص ٥.

(١٧) سمير عبد الفتاح، مبادئ علم الاجتماع، ص ١٦.

(١٨) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ١٣٧.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، ص ١٨٩.

(٢١) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ١٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) زيدان عبد الباقي ، التفكير الاجتماعي، ص ١٩١.

(٢٤) احسان محمد الحسن، رواد الفكر، ص ٨٩.

(٢٥) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ٢٤٧.

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧١.

(٢٧) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ٢٥٦.

(٢٨) طه حسين، فلسفة ابن خلدون، ص ١٠٢.

(٢٩) معن خليل عمر، تاريخ الفكر الاجتماعي، ص ١١١-١١٢.

(٣٠) احسان محمد الحسن، علم الاجتماع، دراسة نظامية، بغداد، ١٩٧٦، ص ١٠٨.

(٣١) إبراهيم عيسى عثمان، الفكر الاجتماعي، ص ٢٦.

(٣٢) معن خليل عمر، تاريخ الفكر الاجتماعي، ص ١١٢.

(٣٣) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ١٤٨.

(٣٤) زيدان عبد الباقي ، التفكير الاجتماعي، ص ١٩٤.

(٣٥) احسان محمد الحسن، رواد الفكر، ص ٩٧.

(٣٦) معن خليل عمر، تاريخ الفكر الاجتماعي، ص ١٠٥.

(٣٧) ابن خلدون، المقدمة، الكتاب الأول. رواد١٠٠

(٣٨) طه حسين، فلسفة ابن خلدون، ص ٩٥.

(٣٩) نبيل عبد الحميد، تاريخ الفكر، ١٢٥.

(٤٠) زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، ص ٢٠٥.

(٤١) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٤٢) احسان محمد الحسن، "الجذور التاريخية لمناهج العلوم الاجتماعية عند العرب"، مجلة المورد، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٩٨٨، ص ٣.

(٤٣) احسان محمد الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، ص ٧٦.

(٤٤) احسان محمد الحسن، رواد الفكر، ص ٩٣.

(٤٥)احسان محمد الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، ص ٧٧.

(٤٦)احسان محمد الحسن، رواد الفكر، ص٩٥.

(٤٧) احسان محمد الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، ص ٧٦.

(٤٨) زيدان عبد الباقي ، التفكير الاجتماعي، ص ٢٠٦.